مقدمة

بلغ الإنجليز أقصى الأرض من بضعة قرون. فرنت أبصار الاستعمار إلى مصر حيث تلتقى وتفترق خطط الدفاع عن الشرق ، وتلاحقت محاولاتهم من عهد المماليك ومحمد على ، وضد الفرنسيين والمصريين ، ليكسفوا الشمس البازغة فى شرق البحر المتوسط ، وأبى الله إلا أن يتم نوره ، فتسللوا يستبقون أسهم القناة ويؤلبون الدائنين على الخديوين . ولما ضل سعيهم أقبلت أساطيلهم ، جهاراً نهاراً ، تخترع الأعذار للاستعمار . فلما دحرتهم جيوش مصر فى غرب الدلتا شرّقوا يقتحمون القناة التى تحميها قواعد القانون الدولى ، وهرولوا يناوشون بعض الفيالق المصرية المبعثرة . ويخلفونها إلى قلب مصر فى القاهرة .

وفقدت مصر استقلالها فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ وكرثتها كارثة الاحتلال ، فانطبع كيانها بطابع الانتقاض على الاستعمار ، وكانت زلازلها جميعاً رجع الصدى لأحداثه .

ولم تكن الأعوام الثلاثون التالية للاحتلال هجعة شعب يؤوس زعزعته الخيانة ، بل كانت استجماعاً لقوى الأمة حتى تنهض « نهضة فاتحة القرن » فتؤتى طلائعها أثارها الدامية بعد إذ سكت قصف المدافع فى سنة ١٩١٩ .

وما كانت الأعوام الثلاثون الأخرى بعد ثورة سنة ١٩١٩ إلا محنة

الحياة السياسية التى سلطها الاحتلال على الشعب فلم يتثلم حده ولم يهن جلده ، بل عرف طريقه إلى « النهضة الثانية » فى ثورات ثلاث متعاقبة تقوم على وشيجة جامعة بينها ، حقيقة بتسميتها « نهضة منتصف القرن »

أما الثورة الأولى فكانت ثورة دستورية عارمة فى « صناديق الانتخاب » ألقت فيها الأمة درساً على الملك لم يتعظ به ولم تفد لنفسها منه ، مذ كان قد سيطر على الحكم خمس سنوات دامية بوزارات من الأقلية الشعبية أو المستقلين ، تستمد سلطانها فى الشعب من الملك ! ... وخيل اليه أن الإرهاب الذى يبسط به يده إلى الشعب قد أدخل فى ضميره الرعب ، حتى إذا جاء أجل الانتخابات العامة أعلن بكل لسان رغبته فى « برلمان متوازن » وأدرك الشعب أنه يريد لنفسه مجلساً كله أقليات ، تنحنى بين يديه ، ليحكمها ، ويحكم بها .

فما أن وقف الناخبون أمام « الصناديق » فى فاتحة عام ١٩٥٠ حتى دوت إرادتهم قاهرة لأهواء الملك ، مجلجلة « بالحركة الشعبية » التى ترتجها البلاد ، فبوأوا مقاعد البرلمان نفس الأغلبية الشعبية التى كانت تقف له بالمرصاد ، وكان يفزع من ذكراها ... غير أن تلك الأغلبية الشعبية عجزت ـ وهى فى عنفوانها ـ عن أن تفرض عليه سلطان الأمة ! فبخعت الثورة الدستورية نفسها ، واستيأست الأمة من النظام بتمامه .

وثارت الثورة الثانية فى العام التالى ، يوم حملت الكتلة الشعبية الأغلبية البرلمانية على يدها كما يحمل الزورق التيار ، فألغيت المعاهدة .

ونهد الأبطال للقتال فى شواطىء القنال ، يغسلون بدمائهم الطاهرة عنا عار الاستعمار ، ويسمعون العالم صوت مصر بلسان الحديد والنار ، ويستغفرون التاريخ لنا عن طول ما صبرنا . وأدرك الملأ أن ضمير الغيب قد أجن النصر لمصر ، وإذا بالبلاد تصاب من مأمنها ، بحريق فى القاهرة

أسلم مقاليدها للعدو ، كما أمكن حريق « الريشستاغ » « هتلر » من ألمانيا ، وأعيد آساد القتال من القنال ، وسيق الأحرار إلى المعتقلات ، وأمست مصر بين عشية وضحاها سجناً كبيراً تتراءى أسواره الجهنمية عند حدودها الطبيعية ، وطويت صفحات البشرى ، ونشرت الصفحات الأخرى ... صفحات المفاوضات ... والحرب الأهلية ووزارات ست فى أشهر ستة ! أو ثمانين وزيراً ... تتهاوى دراكاً كالأنجم المنكدرة !

وتساءل المصريون : ألا أين نصر الله ؟

وكانت الثورة الثالثة هى الجواب الذى قد كان قدر ...

كانت صدى الثورتين السابقتين فى العامين المنصرمين ... فلما خرجت الثورة الأولى على قاعدتها ، وحرفت الثورة الثانية عن قبلتها ، كان لزاماً أن تكون ثورة الجيش بعد أشهر جماع الثورتين معاً ، فترى المستقبل فى ضوء الماضى ، وتعاجل العدو الداخلى فى وثبات خاطفة ، لتدير وجهها من بعد للعدو الخارجى .

فى هذه الثورات الثلاث تتراءى النهضة التى تجهزت مصر بجهازها منذ فاتحة القرن فلم تقدر عليها إلا فى منتصفه . وفيها تتبدى حقيقتان بارزتان :

أولاهما : أن العالم — حتى بعد ميثاق الأمم المتحدة — قد خلى بيننا وبين إنجلترا فجمعت جموعها لنا . تستنزف دماءنا ، وتنبش قبورنا ، وتمزق أشلاءنا ، وتهدم قرانا على رؤوسنا ، أيام كانت أمم الحضارة الغربية تحتفى بأعياد الميلاد ... فتعلمنا من صروف الزمان أنه لن تحمينا المعاهدات التى نكون طرفاً فيها ، أو التى لا نكون فيها طرفاً ، وإنما تحمى مصرنا صدورنا ... وتعلمنا أن السيف محور الكرة الدوارة بنا — فمن أمسك سيف القوة بيده أمسك كرة الأرض من محورها . وتعلمنا أن الأمم

المتحدة التى أصبحت ديدبان السلام فى الأرض قد أنسيت فى الشرق آية الحرية التى لن تنساها فى الغرب ، من تعاليم الرئيس الأمريكى العظيم أبراهام لنكولن « إن الذين يتكرون الحرية على غيرهم من الناس لن يكونوا بها خلقاء ... وما دام هنالك إله عادل فلن يبقى لهم ما منعوه من سواهم »

وثانيتهما : أن مصر إذا صدقت عزمها نطق القدر بلسانها ، ومشت قدماً إلى غاياتها ، تروع أمم الأرض بضراوتها وعرام قوتها ، وتسجل فى صفحات التاريخ ، مرة أخرى ، أن من يقاوم الحرية يقاوم وهج الشمس ، وتعالى النهار ، ودوران الأرض ، ويتحدى العناصر

وتألق فى الثورة الأولى من البرلمان ، وخارج البرلمان ، هؤلاء الشجعان الذين حملوا ألوية الدفاع عن أسلحة الجيش والقضاء وحرية الرأى والمساواة ، وهى دعامات الحياة فى الأمم . وبرز فى معركة القنال وثورة الجيش رجال دخلوا التاريخ من أرحب أبوابه ، لن تعرف مصر نفسها إلا إذا عرفت نفوسهم ، فبصرت بمعالمها ، والأبطال فى قمم معالمها .

ومن حق الأجيال المقبلة أن تسمع مع من سمع ، وتبصر مع من بصر ، ليتواتر الخبر ، وتؤول الشعلة المقدسة من يد إلى يد فلا تنطفئ أبداً .

فإلى بنى العصر ، على لسان شاهد عيان ، بعض اللمسات واللمحات ، من سيرة مصرى بطل ، سجل لنفسه يوماً من أيام مصر الناهضة فكان فيلقاً وحده ، وكان انتصاراً بتمامه — ليحملوا أمانتهم كما حملها الذين من قبلهم ، وينقلوا للأجيال أحاديث تلك العصبة « البدرية » من آساد القنال ، ويذيعوا آية الجهاد والاستشهاد من كتاب « أحمد عصمت » : « إن الحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات » .